التجارة الخارجية للجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين

د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري
قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

التجارة تأتي بمعنى البيع والشراء وطلب الرزق(١)، ولخصها ابن خلدون بأنها: «اشتراء الرخيص وبيع الغالي»(٢)، كما أنه قال عنها: «اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيًّا كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش، وذلك القدر النامي يسمى ربحًا، فالمحاولة لذلك الربح: إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإما أن ينقله إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة»(٣).

والتجارة الخارجية عبر العصور المختلفة - لكل البلدان والأقاليم ومنها الجزيرة العربية - تنقسم في اتصالها وطرق تبادلها، إلى تجارة برية وتجارة بحرية. ونحن نعلم أنه في الفترة التي سبقت الإسلام، وُجد لبلاد العرب علاقات تجارية خارجية برية وبحرية(٤)، إلا أن

(١) ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ). لسان العرب، دار صادر، بيروت د. ت. ج٤/٨٨ .

(٢) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ). المقدمة، دار العلم للملايين، بيروت ١٣٩١هـ، ص ٣٩٤ .

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٩٤ .

(٤) علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م ، ج ٧/٢٣٢ .

التجارة البرية غلبت على أقاليم معينة كالحجاز وشمالي الجزيرة العربية، كما ساد نوعا التجارة البرية والبحرية كلاً من البحرين وبقية منطقة الخليج، بالإضافة إلى اليمن، وكان لوسائل النقل الموصلة إلى تلك الأقاليم داخل الجزيرة العربية أثر كبير في تنوع التجارة وفي ازدهارها في كل إقليم على حدة.

عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين:

عند البحث عن تحديد زمنيّ دقيق لبداية العصر النبوي نتذكر حوادث عدة يمكن عدها بداية له، وبما أننا بصدد الحديث عن قضية تاريخية اقتصادية، فلا شك أن الأمر أوسع من أن يحدد بحادثة معينة أو سنة محددة، ذلك أن التغير في الحياة الاقتصادية لبلاد العرب وتجارتها الخارجية لم يحدث فجأة أو بصورة قوية، كأي تغير ديني أو سياسي أو عسكري أو خلافه.

والعصر النبوي تدرج كما هو معروف بتدرج حياة المصطفى ﷺ ودعوته، وقد قامت دولة الإسلام بهجرة الرسول ﷺ واستقراره مع أصحابه في المدينة، حيث كوّنوا مجتمعًا بشريًا خاصًا له سماته المميزة، حتى في الجوانب الاقتصادية، وبمفهوم جديد، ونشاط كبير، ومداولات أوسع.

ويعدّ العصر النبوي بداية التأسيس لدولة الإسلام، وإقامة سيادتها في بقعة من أرض الله، ويمكننا عدّ البداية الواقعية لهذا المجتمع وتأسيس كيانه المستقل من الهجرة النبوية، وتركيز قاعدته في المدينة المنورة؛ فمنذ ذلك اليوم وكيان الدولة الإسلامية قائم يسوسه الرسول ﷺ.

كانت البداية بسيطة لا تتجاوز المدينة المنورة، بل لا تكاد تسيطر عليها جميعًا، وأخذ نور الله يتم في المدينة، وأخذت دولة الإسلام تمتد خارجها تدريجيًا بالجهاد والسلم، حتى صارت معظم بلاد العرب خاضعة لرسول الله ﷺ وخصوصًا بعد فتح مكة؛ حيث دخل

الناس في دين الله أفواجًا[٥]، وجاء الحق : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[٦].

كما لا يمكننا أن ننسى أن عصر النبوة المبارك ودولته القائمة، بقيادة الرسول ﷺ مقدمة لعصر الراشدين، كما أن الرسول ﷺ قرن بين العصرين فيما يفهم من قوله ﷺ الذي رواه الْعِرْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كان عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَسَتَرَوْنَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[٧].

وقد وضع ابن ماجه بابًا في مسنده سماه (باب اتباع الخلفاء الراشدين)[٨].

ولذلك فإن عصر الراشدين يعد أكثر العصور الإسلامية تميزًا على الإطلاق بعد عهد النبي ﷺ، وقد أجمعت الأمة على ذلك خلال العصور المختلفة، ومن ثم فإن أحداثه لها أهميتها الخاصة في التشريع والقياس والتاريخ.

ويبتدئ عصر الراشدين ببيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ، يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة النبوية[٩]. وينتهي باستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي

(٥) البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (١٩٤-٢٥٦هـ). صحيح البخاري، دار إشبيليا، الرياض، ١٤١٨هـ. ج١٦/١٣٤ .

(٦) الآية (٨١) من سورة الإسراء.

(٧) ابن ماجه: الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧-٢٧٥هـ). سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة ١٣٧٣هـ. ج١/١٧ . ورواه الإمام أحمد في مسند الشاميين، باب حديث العرباض بن سارية. ج٤/١٢٦ .

(٨) ابن ماجه، سننه، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ج١/١٥ .

(٩) خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري (١٦٠-٢٤٠هـ). التاريخ، تحقيق أكرم ضياء العُمري، ط٢، دار القلم ومؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٧هـ، ص٩٤ .

طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة أربعين للهجرة النبوية(١٠).

وقد كانت القيادة في ذلك العصر لأربعة من المبشرين بالجنة، كلهم من أصحاب رسول الله ﷺ وأصهاره.

كما كان معهم عدد كبير من القادة والمستشارين والمخططين، جلهم من أصحاب النبي ﷺ أو من أبنائهم.

وقد انشغل المسلمون أول خلافة أبي بكر بالقضاء على المرتدين في بلاد العرب وإخماد الفتن التي أثاروها، وإعادة الوحدة لبلاد العرب تحت راية الإسلام(١١)، كما كانت بدايةُ الفتوح في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضد فارس والروم.

فكان لهذا العصر سماته المميزة، حيث خاض المسلمون جهادًا قويًا ضد المجاورين لبلاد العرب من المجوس في فارس والروم وأتباعهم في الشام ومصر، وكان جزء من هذا الصراع مع نصارى العرب في العراق والشام، وخصوصًا من وقف منهم مع الفرس أو الروم.

وقد نتج عن هذا الجهاد امتداد الإسلام إلى أماكن جديدة، وتضاعفت رقعة الأراضي المحكومة من قبل الراشدين، وخصوصًا في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن جاء بعده، وتبع ذلك تعدد الشعوب واللغات، والاختلاط بحضارات ونظم كانت سائدة في العديد من الأقاليم التي تم ضمها للدولة الإسلامية، كما أن الراشدين اطلعوا على تلك النظم، وعرفوا الأساليب المدنية والعسكرية المختلفة التي كانت سائدة فيها من دواوين وبريد ودور أموال وضرب للعملات، وتنظيمات إدارية وعسكرية، وغير ذلك مما يصعب حصره، فأفادوا مما رأوه لا يعارض جوهر الإسلام وقواعد العدل فيه، ومن ثم فإن هذا العصر تميز

(١٠) خليفة بن خياط، تاريخه ص١٩٨ .

(١١) انظر حول حروب الردة، الكلاعي الأندلسي، (حروب الردة) تحقيق، أحمد غنيم.

بالانفتاح على الحضارات القديمة السائدة في المناطق التي سيطر عليها المسلمون وغلبوها، ومع هذا الانفتاح فإن المسلمين بقوا على ثوابتهم، بل نشروها في المجتمعات المفتوحة، ولم يجمدوا على ما يقبل التغيير والتحسين، فحسنوها إلى الأفضل، فنمت الدولة والمجتمع، وتطورت أساليبهم الإدارية والعسكرية، لتستوعب النموَّ في رقعة الدولة والزيادة في الرعية، والتغير في الظروف، فكانوا عامل نمو وانضباط لمجتمع وجَّهوه لتحقيق عبودية الناس لله ونشر العدل بينهم.

كما حدثت الفتنة الكبرى في آخر عصر الخلفاء الراشدين وأدت إلى استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما تلا ذلك من أحداث امتدت طيلة خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنها لم تمنع المسلمين من سد ثغورهم أمام الروم وغيرهم في البر والبحر(١٢).

وعند البحث عن تحديد زمني دقيق لبداية العصر النبوي، نتذكر حوادث عدة يمكن عدها بداية له، وبما أننا بصدد الحديث عن قضية تاريخية اقتصادية، فلا شك أن الأمر أوسع من أن يحدّد بحادثة معينة، أو سنة محددة؛ ذلك أن التغير في الحياة الاقتصادية لبلاد العرب وتجارتها الخارجية لم يحدث فجأة، كأي تغير سياسي أو عسكري أو خلافه.

ومع هذا فإني أميل إلى اعتماد البعثة النبوية بداية عصر الرسول ﷺ؛ ذلك أنه بداية ارتباط سماويّ بأهل الأرض بعد نزول الوحي على المصطفى ﷺ، حيث بدأ ﷺ التغيير في حياة العرب وعقلياتهم، والعالم في جوانب مختلفة ومنها التجارة التي كانت شغل عرب الحجاز قبل مبعثه ﷺ.

(١٢) البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧١هـ).- فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٣٩٨هـ.- أنساب الأشراف، ج١ تحقيق محمد حميدالله، معهد المخطوطات العربية ودار المعارف، القاهرة ١٩٥٩م، ص٣٢٤ .

والعصر النبوي تدرج كما هو معروف بتدرج دعوة المصطفى ﷺ، وقد قامت دولة الإسلام بهجرة الرسول ﷺ، واستمرت بعد القيام تنمو، وتمتد وتقوى حتى سيطرت على بلاد العرب، وغيرت نظمها الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وامتدت إلى مناطق أخرى بعد رسول الله ﷺ في عهد خلفائه الراشدين.

وأما نهاية عصر الراشدين فاستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في رمضان سنة ٤٠هـ(١٣).

أهمية التجارة:

تعد التجارة من أهم الحرف التي يمتهنها العرب في العصر الجاهلي، وخصوصًا عرب الحجاز، وبالذات قريش التي ما سميت قريشًا إلا لتقرشها المال والعمل في التجارة(١٤)، وحينما بعث النبي ﷺ ونزلت عليه آيات القرآن بالتدرج أشار كثير منها إلى التجارة، فأطول آيات القرآن وهي آية الدَّين ورد الحديث فيها عن التجارة، ومنها: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١٥).

كما ورد الحديث عن التجارة وما يتعلق بها من كساد وغيره، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ

(١٣) انظر: ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ). البداية والنهاية، ط٣، مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٨م، ج٧/ ٣٢٧ .

(١٤) ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ). معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان (د. ت). ج ٤ / ٣٣٦ .

وقال: (القريش تصغير القرش وهو الجمع من ههنا وههنا ثم يضم بعضه إلى بعض).

(١٥) الآية (٢٨٢) من سورة البقرة.

اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾(١٦).

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(١٧).

وفي قوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾(١٨).

وقد عملت الشريعة الإسلامية التي طبّقها النبي ﷺ على تأمين الطرق والبلدان، مما أثر بدرجة كبيرة في التبادل التجاري، فقد حارب الإسلام اللصوص الذين كانوا يتعرّضون للطرق ويعطلون التجارة وينهبونها، ويؤذون الناس(١٩).

مراكز التبادل التجاري الخارجي :

علاقة الجزيرة العربية التجارية بالمناطق الخارجية كانت قوية منذ زمن طويل قبل الإسلام، ولا يستطيع الإنسان أن يفصل بين فترات محددة في مجال الدراسات الاقتصادية التاريخية، إلا أن الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها، وخصوصًا في عصر الراشدين، تميّزت بدخول شعوب كثيرة في الإسلام بعد مرحلة الفتوح في بداية عصر الراشدين، مما زاد من ارتباط هذه الشعوب ببلاد العرب لأمور دينية مختلفة، يأتي على رأسها موسمُ الحج، الذي جعل الكثير منهم يقدم

(١٦) الآية (٢٤) من سورة التوبة.
(١٧) الآية (٢٩) من سورة النساء.
(١٨) الآية (٣٧) من سورة النور.
(١٩) انظر : الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ).- تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت (د.ت).- مشاهير علماء الأمصار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ- جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤١٢هـ. ج ٥٤٦/٤ .

في موسمه لبلاد العرب، وكان الكثير من هؤلاء الحجاج وغيرهم من المسلمين الجدد، يحرصون على الاستفادة من المواسم التجارية المصاحبة للحج والزيارة، ومن ثم زادت الروابط التجارية بين بلاد العرب ومناطق الفتح الإسلامي الجديد، وخصوصًا بعد استقرار الفتوح[٢٠]، كما أن مشاركة الكثير من أبناء القبائل العربية في الفتوح المختلفة، وتردّدهم بين مناطق الفتح وبلاد العرب بأهداف مختلفة لم يخل من أهداف تجارية أخرى وتبادل للسلع، بل نكاد نجزم أن كل رحلة بين مناطق الفتح وبلاد العرب لم تخل من سلع منقولة، من أى منهما بطريقة أو بأخرى أو إليهما ولعل وجود الجمال بين أيدي العرب ومعرفتهم بها وبتربيتها، كان له أثر في استثمارهم لها لنقل البضائع في مواسمهم المختلفة من بلاد العرب أو إليها[٢١].

بلاد الشام: تعد من أهم المناطق التي وصلها التجار العرب للبيع والشراء، حيث كانوا يُسوّقون فيها تجارتهم ويجلبون منها السلع، ولعل إشارة القرآن لهذا الأمر تعدّ من أهم ما ورد في ذلك في قوله تعالى: ﴿ **لإيلافِ قُرَيْشٍ** ﴾[٢٢] حيث ذكر العلماء أن المراد بالآيات ما كانت تألفه قريش من رحلات تجارية في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام بالدرجة الأولى، مع وجود بعض الرحلات المستمرة إليها طوال العام[٢٣]، ومن ثم فإن أهل مكة أهلُ سفر وقوافل مختلفة للتجارة في هذه البلدان[٢٤].

(٢٠) هايد: ف. تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى. ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة: عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٣ .

(٢١) انظر: علي جواد- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م، ج٧/ ٣٢١ .

(٢٢) الآية (١) من سورة قريش .

(٢٣) انظر: د. عبدالعزيز الهلابي، حقيقة رحلة قريش إلى الشام، مجلة الدارة، السنة ٢٢ العدد ٤/ ١٤١٧هـ .

(٢٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤/٥٥٣ .

وكان هاشم جد النبي ﷺ تاجرًا يتردّد على الشام عن طريق المدينة، وتزوّج منها لتردده عليها في تجارته إلى الشام[٢٥].

وكانت أهم المراكز التجارية في بلاد الشام التي وصلها تجار مكة (بُصرى)[٢٦]، حيث ذكر أن الرسول ﷺ وصل إليها برفقة عمه أبي طالب[٢٧].

كما أن تجار الشام من الروم وغيرهم يصلون باستمرار إلى أسواق العرب، وخصوصًا ما كان على الأطراف الشمالية، مثل دومة الجندل وغيرها من الأسواق الشمالية للجزيرة العربية[٢٨].

كما أن عمه أبا طالب حثه على التجارة في أموال خديجة بقوله: «يا بن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا وألحّتْ علينا سنون منكرة، وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة ابنة خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرها، فلو تعرضت لها. وبلغ خديجة ذلك، فأرسلت إليه، وأضعفت له ما كانت تعطي غيره»[٢٩]. فكان ﷺ يضارب لها في مالها، ويرحل به إلى الشام[٣٠].

ولاشك أن تجارة عرب الحجاز، عمومًا وأهل مكة خصوصًا مع أهل الشام، لم تكن حادثة في العصر النبوي، بل كانت قديمة حيث

(٢٥) الطبري، تاريخه، ج ١ / ٥٠١ .
ابن كثير، البداية والنهاية ج ٢/ ٢٥٣ .

(٢٦) بصرى: قصبة حوران من أعمال دمشق في بلاد الشام اشتهرت عند العرب منذ القدم (معجم البلدان، ج١/ ٤٤٠).

(٢٧) ابن هشام: أبو محمد عبد الملك المعافري (ت٢١٣هـ). السيرة النبوية، تعليق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة شقرون، القاهرة (د.ت)، ج١/ ١٨١، الأصبهاني، دلائل النبوة ص١٢٤ .

(٢٨) جواد علي، المفصل، ج٧/ ٣٧١ .

(٢٩) ابن سعد: محمد بن منيع الهاشمي، مولاهم-كاتب الواقدي-(ت٢٣٠هـ). الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت (د.ت). ج ١/ ١٥٦ .

(٣٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٦/ ٢٨٦.

أكد المؤرخون أن هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ توفي في (غزة) وهو في تجارة لقريش إلى تلك المناطق[٣١]، ولم تكن علاقة قريش التجارية مع الشام لخدمة منطقة الحجاز فقط، بل عد تجار قريش واسطة للتجارة بين الشام وما يقع جنوب الحجاز وخصوصًا اليمن[٣٢].

وقد ثبت أن عفان والد عثمان بن عفان رضي الله عنه هلك في تجارة إلى الشام[٣٣].

وفي بداية علاقة الروم بالإسلام ثبت أن هرقل حينما وصلته رسالة النبي ﷺ، أخذ يبحث عن تجار من الحجاز، حتى وقع على أبي سفيان بن حرب، فاستدعاه وأخذ يوجه له بعض الأسئلة عن رسول الله ﷺ[٣٤]، ليعرف حقيقته.

وقد ورد عن أبي العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ في ابنته زينب أنه «خرج في تجارة لقريش، فاعترضه زيد بن حارثة في سريّة، فقتلوا جماعة من أصحابه وغنموا العير، وفر أبو العاص هاربًا إلى المدينة، فاستجار بامرأته زينب فأجارته، فأجاز رسول الله جوارها ورد عليه ما كان معه من أموال قريش، فرجع بها أبو العاص إليهم، فرد كلَّ مال إلى صاحبه، ثم تشهد شهادة الحق، وهاجر إلى المدينة»[٣٥].

(٣١) الصالحي الشامي: محمد بن يوسف (ت٩٤٢). سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد، ج١، تحقيق مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٤هـ، ج٣١٦/١ .

(٣٢) جواد علي، المفصل، ج٢٨٥/٧ .

(٣٣) المقدسي: مطهر بن طاهر (ت٥٠٧هـ). البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت)، ج ٧٩/٥ .

(٣٤) البخاري، صحيحه، كتاب بدء الوحي، الحديث السابع ، وانظر ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٤٩٦/٣ .

(٣٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣٥٤/٦ .

كما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، في تجارة إلى الشام، وكان لا يفارقه في سفره وحضره(٣٦).

وقد ثبت أن طلحة بن عبيدالله «غاب عن وقعة بدر في تجارة له بالشام، وتألم الرسول ﷺ لغيبته، فضرب له ﷺ بسهمه»(٣٧).

وقد كان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ممن يزور الشام للتجارة قبل إسلامه، حتى وقع في عشق ليلى بنت الجودي، فكانت بعد ذلك من نصيبه في السبي بعد فتح دمشق في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٣٨).

كما أنه من الثابت أن سبب غزوة بدر محاولةُ الرسول ﷺ اعتراض قافلة لقريش قادمة من الشام(٣٩).

وقد ثبت أن دحية بن خليفة الكلبي حين بعثه رسول الله ﷺ لقيصر صاحب الروم، كان معه تجارة توجَّه بها إلى الشام(٤٠).

كما يذكر المؤرخون في سبب إسلام أبان بن العاص أنه: «اجتمع براهب، وهو في تجارة بالشام، فذكر له أمر رسول الله، فقال له الراهب : ما اسمه؟ قال: محمد. قال: فأنا أنعته لك، فوصفه

(٣٦) المحب الطبري، الرياض النضرة، ج١/٤٠٠ .

(٣٧) الذهبي: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٨٤٧هـ).- سير أعلام النبلاء، ط١، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ١٤٠٥هـ.-السيرة النبوية تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة الهلال، بيروت (د. ت). ج ١/ ٢٥ ، ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢).-الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ. الإصابة ج ٣/ ٥٣٠ .

(٣٨) ابن سلام: أبوعبيد القاسم (ت ٢٢٤ هـ) كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، ط ١، بيروت ١٣٩٦هـ ، ص ٤٠١ .
الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/٤٧٢ .
ابن كثير،البداية والنهاية، ج ٨ / ٩٠ .
ابن حجر، الإصابة، ج٤/٤٠٦ .

(٣٩) البخاري، صحيحه، ج٥/٤، ابن أبي شيبة، المغازي، ص٨٠، الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج١/١١٧ . الذهبي، المغازي، ص٨٠ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦٠٦ .

(٤٠) الطبري، تاريخه، ج ٢ /٢٠١ .

بصفته سواء. وقال: إذا رجعت إلى أهلك فأقرئه السلام فأسلم»[٤١].

وتتحدث الروايات عن «سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادي القرى، ثم سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة، بناحية وادي القرى على سبع ليال من المدينة، في شهر رمضان سنة ست من مهاجر رسول الله. قالوا: خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ، فلما كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم، ثم استبلَّ زيد وقدم على رسول الله فأخبره، فبعثه رسول الله إليهم»[٤٢].

ولكي نعرف حجم التبادل التجاري بين قريش في مكة وبلاد الشام، فإننا نجد أنه خلال فترة سنة ونصف قبل غزوة بدر، وبعد استقرار الرسول ﷺ في المدينة المنورة، تعرضت سبعُ قوافل لقريش لسرايا من رسول الله ﷺ[٤٣].

وهذا يجعلنا نقدّر حجم تجارة قريش إلى الشام، مع العلم أنه ربما وجدت قوافل أخرى كبيرة لم تتعرض لها سرايا رسول الله ﷺ.

وقد تكررت ضربات المسلمين ضد تجارة قريش وأوجعتهم، وأضرت بتجارتهم مع الشام[٤٤]، وكان هذا بمثابة حصار اقتصادي، منع تجارة قريش مع الشام، أثناء حربها لرسول الله ﷺ.

وقد ذكرت المصادر أن إحدى قوافل قريش القادمة من الشام، والتي تعرّض لها رسول الله ﷺ في غزوة بواط، تقدر بألفين وخمسمئة بعير[٤٥].

---

(٤١) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٥ / ٣٤٠ .

(٤٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢ / ٩٠ .

(٤٣) محمد عزة دروزة، عصر النبي ﷺ، ط ٢، دار اليقظة، بيروت، ص٧٤ .

(٤٤) انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٠٣ . الواقدي محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) ، المغازي تحقيق د. مارسون جونس، عالم الكتب، بيروت (د. ت)، ج١/ ١٣ . الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٢/ ٢٦٢ .

(٤٥) الواقدي، المغازي، ج١/ ١٢، ابن الأثير، الكامل، ج٢/ ١١٢ .

وقد روى البخاري في كتاب (تفسير القرآن) باب ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا﴾ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أقبلت عير يوم الجمعة، ونحن مع النبي ﷺ، فثار الناس إلا اثني عشر رجلاً، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾(٤٦).

ويؤكد المفسرون أن التجارة كانت لدحية الكلبي قبل إسلامه، وأنها كانت قافلة تحمل طعامًا وزيتًا في زمن حاجة(٤٧).

ونستطيع أن نخلص إلى أن أهم أسواق الشام التي قصدها التجار من بلاد العرب في عصر الرسول ﷺ هي: بصرى وغزة وبيت المقدس ودمشق، بالإضافة إلى أسواق أخرى. وقد زادت الصلة بهذه الأسواق وامتدّت إلى غيرها بعد الفتح الإسلامي للشام.

وقد كان بعض الصحابة يتوجهون للتجارة من بيت المقدس، خصوصًا في زمن الرسول ﷺ(٤٨).

وبعد استقرار المسلمين في بيت المقدس بعد فتحها، كان الكثير منهم يقدم إليها جامعًا بين التجارة والصلاة فيه في وقت واحد، وقد دار بين كعب الأحبار وأحدهم حوار سأله فيه فقال: «ما جاء بك؟ قال جئت لأصلي في هذا المسجد ولألقى كعبًا. فقال: هو جليسك. فقال: كعب: أفما جئت إلا أن تصلي فيه ؟ قال: نعم. قال كعب: ما من عبد يقوم من الليل، فيتوضأ ويصلي ركعتين، إلا خرج من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه. ومن جاء إلى بيت المقدس ليصلي فيه من غير تجارة ولا بيع إلا رجع كهيئته يوم ولدته أمه»(٤٩).

(٤٦) سورة الجمعة من الآية ١١ .
البخاري، صحيحه، في كتاب (تفسير القرآن) باب ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا﴾ ج ٣/٦ .
(٤٧) انظر: الطبري، تفسيره، ج٩٧/١٢ .
(٤٨) سير أعلام النبلاء، ج ٢ / ٤٧٩ .
(٤٩) الأصبهاني : أبو نعيم أحمد عبد الله (ت ٤٣٠هـ) ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، ج ٥ / ٣٨١ .

كما أن النساء في عصر عمر رضي الله عنه كنّ يشاركن في التجارة إلى الشام، مع أولادهن كما ورد في قصة لهند بنت عتبة؛ أمّ معاوية بن أبي سفيان، أنها ذهبتْ في تجارة إلى الشام في زمن عمر بن الخطاب(٥٠).

وقد ثبت أن بعض فقهاء المدينة في عصر الراشدين، كانوا كثيري التجارة مع الشام منهم: «قبيصة بن ذؤيب الخزاعي الكعبي أبو سعيد من فقهاء أهل المدينة وعبادهم، كان كثير السفر إلى الشام في تجارة وغزو، فحديثه عند أهل الشام والمدينة معًا، كان مولده عام الفتح، توفي بالمدينة سنة ست وثمانين»(٥١).

مصر: كانت إحدى أهم المناطق التي تتبادل التجارة مع بلاد العرب، وخصوصًا مع الحجاز، حيث عرف عن بعضهم استيراد الأقمشة وغيرها، من البضائع المصرية إلى الحجاز(٥٢).

كما كانت مصر في عصر الراشدين وخصوصًا بعد استقرار أوضاعها عقب الفتح الإسلامي، من أهم مناطق التبادل التجاري مع الجزيرة العربية، حيث كانت البضائع تنقل منها إلى الحجاز، وإلى اليمن عبر البحر الأحمر، وقد ساعد على ذلك، حفر قناة أمير المؤمنين التي قرّبت بين النيل والبحر الأحمر، وهي قناة قديمة جُدّدت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٥٣).

---

(٥٠) الطبري، تاريخه، ج ٢ / ٥٧٦ .

(٥١) الطبري، مشاهير علماء الأمصار، ج ١ /٦٤ .

(٥٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٥ /٦٠٣ .

(٥٣) لمزيد من التفاصيل حول هذه القناة انظر: ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ)، فتوح مصر وأخبارها، ليدن ١٩٢٠، ص, ١٢٢ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢١٧ . اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت٢٨٢هـ).-تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ، ص١٥٤ . النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧-٧٣٣هـ).- نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب الوطنية، القاهرة (د.ت)، ج٣٢٧/١٩ . ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ص٥٧ .

ومما روي أن عبد الرحمن بن عوف، جاءته مئة راحلة من مصر عليها تجارة فوزعها بين أرامل أهل المدينة وأيتامها(٥٤).

العراق وفارس: تعد من أكثر المناطق صلة بالجزيرة العربية، في مجال التبادل التجاري قبل الإسلام؛ فقد وصل تجار مكة إلى الحيرة ووصل تجار الحيرة إلى العراق، ونسبت لذلك بعضُ الروايات انتشار القراءة والكتابة في مكة والطائف، ومع أن ما يهمنا من الرواية ما يتعلق بوصول التجار إلى مكة والطائف، إلا أن الرواية تمتد لتأثيرات أخرى، حيث ذكر قدوم رجل «من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه، فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط، فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا. ثم إنّ بشرًا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة، فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلم الخط منهم، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر، فتعلم الخط منه عمرو بنُ زرارة بن عدس، فسمي عمرو الكاتب. ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك. وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين أيضًا رجل من طابخة كلب فعلمه رجلاً من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يتردّد فأقام بها، وعلّم الخط قوما من أهلها»(٥٥).

كما تذكر المصادر في سبب حرب الفجار «أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجاز لطيمة - أي تجارة - للنعمان بن المنذر، فقال البراضُ بنُ قيس، أحدُ بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: أتجيزها على كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق. فخرج فيها عروة الرحال، وخرج البراض يطلب غفلته، حتى إذا كان بتيمن ذي طلال بالعالية غفل عروة، فوثب عليه البراض، فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سمي الفجار»(٥٦).

(٥٤) المحب الطبري، الرياض النضرة، ج١/٢٣٣ .
(٥٥) البلاذري، فتوح البلدان، ج ١ / ٤٥٧ .
(٥٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢ /٢٨٩ .

ومن ذلك أن رستم كان يحاور أحد المسلمين قبيل القادسية، ويشير لهذه القضية - في رواية الطبري - التي جاء فيها الحديث عن العرب في قوله: «كنا نُحسنُ جوارهم، ونكفُّ الأذى عنهم، ونوليهم المرافق الكثيرة؛ نحفظهم في أهل باديتهم فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا، وقد كان لهم في ذلك معاش»(٥٧).

كما وردت قصة أخرى عن تجار من قريش ذهبوا للتجارة في فارس، تُبيّن ذكاء بعضهم ولباقته في الحديث مع كسرى: «خرج أبو سفيان بن حرب في جمع من قريش وثقيف، يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم، فلما ساروا ثلاثا جمعهم أبو سفيان فقال: إنا في سيرنا هذا لعلى خطر؛ ما قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه، وليست بلاده لنا بمتجر، فأيكم يذهب بالعير فنحن برآء من دمه إن أصيب، وإن يغنم فله نصف الربح، فقال غيلان بن سلمة: أنا أمضي بالعير، وأنشده:

فلو رآني أبو غيلان إذ حسرتْ ... عني الأمور بأمر ما له طبقُ
لقال رغب ورهب أنت بينهما ... حُبُّ الحياة وهولُ النفس والشّفق
أما مشف على مجد ومكرمة ... أو أسوة لك فيمن يهلك الورق

فخرج بالعير وكان أبيض طويلاً جعدًا، فتخلّق ولبس ثوبين أصفرين، وشهر نفسه وقعد بباب كسرى حتى أذن له فدخل عليه وحجاب بينهما، فقال الترجمان: يقول لك ما أدخلك بلادي بغير إذني؟ فقال: لست من أهل عداوة لك، ولم أكن جاسوسًا، وإنما حملت تجارة؛ فإن أردتها فهي لك، وإن كرهتها رددتها. قال فإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فخرّ ساجدًا، فقال له الترجمان: يقول لك ما

(٥٧) الطبري، تاريخه، ج ٢ / ٤٠٠ .

أسجدك؟ قال: سمعت صوتًا مرتفعًا حيث لا ترتفع الأصوات، فظننته صوت الملك فسجدت. قال فشكر له ذلك وأمر بمرفقة فوضعتْ تحته، فرأى فيها صورة الملك، فوضعها على رأسه، فقال له الحاجب: إنما بعثنا بها إليك لتقعد عليها، فقال: قد علمت ولكني رأيت عليها صورة الملك، فوضعتها على أكرم أعضائي، فقال: ما طعامك في بلادك؟ قال: الخبزُ، قال: هذا عَقْلُ الخبز»(٥٨).

وقد اشتهر عن عبد الله بن جدعان - وهو أحد أكبر تجار قريش - أنه كثيرُ التجارة مع الحيرة، حتى أحب طعامها واستقدم طباخًا منها(٥٩).

وفي الوقت نفسه، فإن تجار الحيرة انتشروا في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية حتى قيل: «إنك لا ترى في الأرض مكانًا ليس فيه حيريّ»(٦٠).

الحبشة: تعد من أكثر المناطق التي تستقبل التجار من بلاد العرب، كما أن العرب يستوردون منها العديد من المنتجات المختلفة، وقد كانت الحبشة ترتبط بأوربا بعلاقات تجارية خاصة مع الروم، عن طريق أقاليمها التابعة لها في الشام ومصر، وكانت تجارة الحبشة تعبر البحر الأحمر، كما كانت بعضها تنزل في اليمن، وينقلها العرب برًا إلى بلاد الشام(٦١).

وتؤكد بعض المصادر ارتباط رحلة الشتاء بالأحباش منذ بداياتها الأولى، وارتباطها من جانب آخر بالشام. يقول اليعقوبي في تاريخه: «وكان أوّل من سنَّ الرحلتين: رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف

(٥٨) ابن حجر، الإصابة، ج ٥ / ٣٣٢ .

(٥٩) جواد علي، المفصل، ج٧/ ٢٩٥ .

(٦٠) ابن العبري : غريغوس الملطي (ت ١٢٨٦م) ، مختصر الدول، ط ٣، دار المشرق، بيروت ١٩٩٢م، ص٢٥٠ .

جواد علي، المفصل ج٧/ ٢٩٦ .

(٦١) ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ص٢٢ .

إلى الحبشة هو النجاشي، وذلك أن تجارة قريش لا تعدو مكة، فكانوا في ضيق حتى ركب هاشم إلى الشام، فنزل بقيصر، فكان يذبح في كل يوم شاة، ويضع جفنة بين يديه، ويدعو من حواليه، وكان من أحسن الناس وأجملهم، فذُكر لقيصر، فأرسل إليه. فلما رآه وسمع كلامه أعجبه وجعل يرسل إليه، فقال هاشم: أيها الملك إنّ لي قومًا وهم تجار العرب، فتكتب لهم كتابًا يُؤمّنهم ويؤمّن تجارتهم»[٦٢].

وما أشرنا إليه في النص السابق يؤيده ابن هشام، إلا أنه يشكّك في كون هاشم أول مَنْ سنّ الرحلة[٦٣].

ولعل قوافل قريش التجارية بين اليمن ومكة، وبين مكة والشام، كانت تقوم ببعض المهام في هذا الجانب.

وقد أدت بعض الموانئ الحجازية دور الوسيط في التجارة بين الروم والحبشة بشكل محدود جدًّا قبيل الإسلام، مثل ميناء الشعيبة[٦٤] قرب مكة المكرمة، الذي كانت تمرّ به بعض سفن الروم المتوجهة إلى الحبشة، وقد ذُكر تحطّم إحدى هذه السفن بالقرب من سواحل جدة، قبل البعثة النبوية بقرابة خمس سنوات، وكانت هذه السفينة تحمل الأخشاب وبعض مواد البناء التي اشتراها أهل مكة، فكانت عونًا لهم في بناء الكعبة[٦٥].

أدت بعض الموانئ الحجازية دور الوسيط في التجارة بين الروم والحبشة قبيل الإسلام

(٦٢) اليعقوبي، تاريخه، ج ٢٤٢/١ .

(٦٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ١٣٧ .

(٦٤) الشعيبة: قرية على شاطئ البحر الأحمر مقابل مكة المكرمة، وهي ميناؤها منذ القدم وقبل أن تعرف جدة في العصور المتأخرة. وقد زرتها بنفسي وتبعد عن مكة قرابة ١٠٠ كم إلى الغرب على طريق الليث (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٣/ ٣٥١).

(٦٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١٩٣/١ . ابن الأثير، الكامل، ج٤٤/٢ . ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج١٤٦/١ . الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٢٢٨/٢ .

كما تدل الأخبار المتفرقة أن الذين هاجروا من أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة، ركبوا البحر إما من الشعيبة[٦٦] أو من سواحل اليمن[٦٧]. ولا شك أن السفن التي استخدموها كانت مما ينقل التجارة بالدرجة الأولى، وليست عسكرية.

كما كان لليمن نشاط بحري مع الحبشة ومع الهند، في عصور مختلفة قبل الإسلام وبعده[٦٨].

وتعد أسواق (صحار) و(دبا) من أكثر المناطق التجارية في بلاد العرب استقبالاً للتجار القادمين من الهند والسند، بل ومن الصين وما جاورها[٦٩].

الهند: وتعدّ من مناطق التبادل التجاري مع بلاد العرب، ويتركز تبادلها مع اليمن والبحرين وعمان؛ ففي مناطق الخليج في الشرق نجد أن أهل البحرين وعُمان على دراية بالبحر منذ العصور القديمة[٧٠]، ومن المؤكد أن درايتهم هذه بالبحر مردودة للروابط التجارية التي يعدّ من أهم مناطقها الهند وما يرتبط به من جزر. وقد ثبت في بعض النصوص التي ربما تكون متأخرة، أن إحدى النساء الصالحات كانت لها تجارة إلى الهند عن طريق البحر، وقد هلكتْ تجارتُها، فكانت صابرة محتسبة، مما أثار إعجاب عبدالله بن عمر رضي الله عنهما[٧١].

(٦٦) الطبري، تاريخه، ج٢/٢٢١ .

(٦٧) السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله. - الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تعليق طه عبدالرؤوف سعد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ ، ج٢/٢٥٠ . وانظر: جواد علي، ج٧/ ٢٥٩ .

(٦٨) انظر: سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص٦٠ .

(٦٩) جواد علي، المفصل، ص٣٧٦ .

(٧٠) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة ص٥٦ .

(٧١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج ٢/٢٩٦ .
ابن الجوزي، صفوة الصفوة ج ٢/٧٧ .

كما أن عدن في جنوب اليمن، تعدّ مركزًا بحريًا مهمًا مرتبطًا بالهند منذ ما قبل الإسلام، إلى عصور لاحقة، مرورًا بعهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين. ويقول عنها ياقوت: «مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ... هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون إليه، لأجل ذلك فإنها بلدة تجارة»(٧٢).

وتنسب السيوف الهندية إلى الهند، ولعل ذلك مما يدل على استيرادها من هناك (٧٣).

وقد وصف رسول الله ﷺ رجالاً من العرب بأنهم : كأنهم رجال الهند(٧٤)، مما يدل على معرفته ﷺ بصفات أهلها.

وقد وعد رسول الله ﷺ بفتح الهند، ووضع ابنُ كثير عنوانًا خاصًا: (الإخبار عن غزوة الهند)(٧٥) مما يدل على معرفته ﷺ بالهند، ولعل تجارة العرب معه في تلك الفترة، من أهم أسباب هذه المعرفة(٧٦).

وقد اشتهرت بعض المناطق في ناحية البحرين بأنها مصدر للمسك المجلوب من الهند، مما يدل على قوة صلاتها الاقتصادية مع الهند(٧٧).

---

(٧٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/٨٩ .

(٧٣) الطبري، تاريخه، ج٣/٦٠١ . الأزرقي : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ) ، أخبار مكة، ط ٣، تحقيق رشدي ملحس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٣٩هـ ، ج٣/ ١٣٩ .

ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/٣٣٩، ج٤/٥٦ .

(٧٤) ابن حجر، الإصابة ج٦/٤٩٣ .

(٧٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥/٩٨ .

(٧٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦/٢٢٣ .

(٧٧) البكري: عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت (د. ت)، ج ٢/٥٠٦. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢/٤٣٢ .

كما أن رماح القنا من أشهر ما يجلب من نواحي الهند، واشتهرت البحرين وعمان بأنهما مركزان لتجارتها(٧٨).

وقد كان ميناء الأُبلة في شمال الخليج يسمى ثغر الهند، وهو أهم الموانئ الفارسية في استقبال السفن الهندية القادمة بالبضائع، لتعبر من هناك إلى الشام وغيرها من مواقع التجارة البيزنطية(٧٩)، ولا شك أن وصول السفن إلى ميناء الأُبلة، يتطلب مرورها بعدد من الموانئ في الخليج، مما يتيح المجال للتبادل التجاري بشكل قوي، سواء فيما قبل الإسلام أو بعده.

كما اشتهرت بعض الموانئ في عُمان بكثرة السفن الوافدة إليها من الهند عبر العصور المختلفة، وشواهدها في الشعر الجاهلي(٨٠)، ولا شك في استمرار هذا الأمر في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين.

وقد اشتهرت بعض المدن الفارسية بعلاقاتها التجارية مع الهند(٨١)، وقد تم فتح تلك المدن في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولا شك أن هذا قد ساعد على وصول بعض التجار العرب إليها، وربما على نقلهم منها لبعض البضائع القادمة إلى الهند، خصوصًا أن الأموال كانت كثيرة ومتوفرة بعد الفتوح في عصر عمر رضي الله عنه وما تلاه من الخلفاء الراشدين.

كما كان البخور معروفًا في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، وهو مما يجلب من الهند(٨٢).

(٧٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٣٧٨، ٤٠٠ .
(٧٩) انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/٧٦ .
جواد علي، المفصل، ج٧/٢٨١ .
(٨٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/٣٩٣ .
(٨١) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥/٤٠٣ .
(٨٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١/٩٠ .

وكان العرب منذ ما قبل الإسلام يستوردون القسطل الهندي، وهو من أنواع البخور، ويعيدون تصديره إلى بلاد الشام مرة أخرى، لتستفيد منه الكنائس والقصور(٨٣).

مناطق التبادل التجاري العربية:

لاشك أن العرب تبادلوا التجارة مع المناطق القريبة في داخل تلك البلدان، كما كان لهم أسواق مختلفة اشتهرت في العصر الجاهلي يصعب حصرها. وحديثنا عن الأسواق ذات العلاقة بالتجارة الخارجية، والتي استمرت في العصر النبوي وبقي بعضُها إلى عصر الراشدين، إذ كان بعض منها أسواقًا موسمية مرتبطة بزمن أو حدث معين، وبعض منها أسواقًا دائمة مرتبطة بكثافة سكانية معينة، وقد أُلّفت كتب خاصة في أسواق العرب، مما يصعب حصرها. وعمومًا فإن هذه الأسواق هي أهمُّ مواطن التبادل التجاري مع السلع أو التجار القادمين من خارج بلاد العرب، كما أن مواقع مضارب القبائل العربية المختلفة، كانت مراكز جذب للتجار القادمين بسلع خارجية، وكان الذين يقصدون القبائل في الغالب من العرب أو النبط. ويأتي في مقدمة الأسواق في العصر النبوي:

المدينة المنورة: كانت من الأسواق المشهورة في التبادل التجاري مع خارج الجزيرة العربية، وفي بداية الهجرة كان نشاط اليهود التجاري في المدينة وأسواقها قويًا في التجارة المحلية والتبادل الخارجي؛ ولذلك فقد حرص الرسول ﷺ على أن يكون للمسلمين نفوذهم في أسواق المدينة؛ حيث ضرب للمسلمين سوقًا للمدينة، وأصدر أوامره بأن لا يؤخذ من التجار فيه خراجًا(٨٤) (ضرائب) تشجيعًا لهم على

(٨٣) جواد علي، المفصل، ج٧/٢٣٧ .

(٨٤) ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت٢٦٤هـ). تاريخ المدينة، ط١، تحقيق محمود شلتوت، نشر السيد حبيب، المدينة المنورة ١٣٩٣هـ، ج١/٣٠٤ . البلاذري، فتوح الشام، ص٢٨ .

التكاثر في السوق، وذكر بعض المؤرخين أن موضع السوق كان في ناحية من المدينة يصل إليها التجار القادمون من الشام، قبل أن يصلوا إلى سوق بني قينقاع المنافس لهم(٨٥) مما أغضب اليهود، فقام كعب بن الأشرف بقطع أطناب القبّة التي وضعها الرسول ﷺ للسوق، فقام ﷺ بنقلها إلى مكان هو أغيظ لليهود وأقرب إلى طريق القوافل التجارية.

مكة المكرمة : لا شك أن مكة اشتهرت بأسواقها التي تستقطب التجار من داخل بلاد العرب وخارجها، إذ ارتبطت بها أسواق مجنّة، وذي المجاز، ومنى، وارتبطتْ تجارة أسواقها بموسم الحج. ولا شك أن علاقة أسواق مكة التجارية بخارج بلاد العرب قد زادت في عصر الراشدين عمّا كانت عليه قبل ذلك؛ نظرًا لدخول الكثير من الأعاجم في الإسلام، وقدومهم إلى مكة للحج والمجاورة، وبالتالي فإن كثيرًا منهم كانوا يجلبون السلع المختلفة من البلدان التي قدموا منها خارج بلاد العرب. ورغم شهرة مكة في مجال التجارة قبل الإسلام بسبب وجود رؤوس أموال كبيرة فيها، وبسبب نشاط أهلها التجاري الخارجي، إلا أنه بعد استقرار الدولة الإسلامية أواخر عهد النبي ﷺ وفي عصر خلفائه الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ انتقل مركز الثقل التجاري العربي من مكة إلى المدينة(٨٦)، بسبب انتقال كثير من تجار مكة للمدينة، ولكون المدينة – هي – قاعدة الدولة الإسلامية، فقد استقطبت المال والرجال، وبالتالي كانت علاقتها التجارية بخارج البلاد العربية أكبر من علاقة مكة، بالإضافة إلى أن الحجاج القادمين من الشام أو مصر أو العراق، يمرون في طريقهم على المدينة، مما جعل لها أهمية خاصة، وذلك بعد نمو المال بيد أهلها، بسبب حركة الفتوح المختلفة.

(٨٥) عبدالله بن عبد العزيز بن إدريس، مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٢هـ، ص٢٠٩ .

(٨٦) انظر: جواد علي، المفصل، ص ٣٧٦ .

هجر : وهي قصبةُ وقاعدةُ البحرين، شرقي الجزيرة العربية، بلد مشهور بالزراعة، كانت تجلب منها قلال التمور والجزية في عهد النبي ﷺ[٨٧]، وقد قال عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «عجبت لتاجر هجر وراكب البحر»[٨٨]، وكأنه يقصد بذلك ما يقع فيه من مغامرة ومجازفة .

دُبا: قصبةُ عُمان وسوق من أسواق العرب المشهورة، فتحها حذيفة بن اليمان في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٨٩].

صحار: ويَقْدُمُ هذا السوق تجارُ الهند والسند والصين، وهي واقعة تنظيمًا تحت سيطرة الجلندي ملك عمان[٩٠].

عدن: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، من أشهر مرافئ التجارة، يجتمع بها تجار الحبشة والهند وتجار العرب، وهي المدينة اليمنية الساحلية المشهورة حاليًا جنوب اليمن[٩١].

سوق حضرموت: حضرموت إقليم مشهور من أقاليم اليمن، بالقرب من عدن وعُمان، ولأهلها شهرة واسعة في التجارة عبر العصور المختلفة، جاء وفد من أهلها إلى رسول الله ﷺ مسلمين[٩٢].

صنعاء: قاعدة اليمن المشهورة عبر العصور، وقد كانت منطقة وصل بين تجار العرب وتجار الحبشة[٩٣].

---

(٨٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥/٣٩٣ .

(٨٨) الزبيدي: محب الدين محمد مرتضى الحسيني. - تاج العروس من جواهر القاموس، ط١، القاهرة، ١٣٩٦هـ، ج٣/٦١٢ . جواد علي، المفصل، ص٣٧٤ .

(٨٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/٤٣٥ .

(٩٠) جواد علي، المفصل، ج٧/٣٧٦ .

(٩١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/٨٩ . البلادي: عاتق غيث.- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ. ص ٢٠١ .

(٩٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٢٧٠ . عاتق غيث البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة ص ١٠٠ .

(٩٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣/٤٢٦ . عاتق غيث البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة ص ١٧٨ .

دومة الجندل: بلدة تقع في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية، وهي بلدة مقصودة من تجار العرب وفارس والشام(٩٤)، وقد استمرت سوقًا مزدهرة في العصر النبوي وعصر الراشدين، وعدّتْ خلال عصور لاحقة من أعمال المدينة(٩٥).

المشقر: إحدى مدن البحرين، وهي سوق يقصدها الأعراب من شرق الجزيرة، ويردُها تجار فارس وغيرُهم من القادمين عن طريق البحر، كان لها نظام ضرائب؛ حيث كانت قبيلة عبد القيس تعشر الناس(٩٦).

بدر: وهو مكان الغزوة النبوية المشهورة نفسها، وقد نص الطبري على استمرار موسمه كلَّ عام «وكان بدر موسمًا من مواسم العرب تجتمع له بها سوق كل عام»(٩٧). وتصل لهذا السوق بعض البضائع القادمة من الحبشة عن طريق ميناء الجار البحري القريب منها(٩٨) .

عكاظ: يقع بالقرب من الطائف، وهو من أنشط أسواق العرب(٩٩)، وقد كانت شهرتُه الأدبيةُ أكثر من شهرته التجارية(١٠٠)، ومع ذلك فقد اشتهر بالنشاط التجاري؛ حيث يلتقي فيه التجار من داخل بلاد العرب وخارجها(١٠١)، واستمر نشاط السوق في العصر النبوي وعصر الراشدين، بل وحتى الربع الأول من القرن الثاني الهجري(١٠٢).

(٩٤) سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط ٣، دار الفكر بيروت ١٣٩٤هـ، ص ٢٣٢ .
(٩٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٤٨٧ .
(٩٦) البكري، معجم ما استعجم، ج٢/١٢٣٢ .
جواد علي، المفصل، ج٧/٣٧٣ .
(٩٧) الطبري، تاريخ، ج٢/٢٧٦ .
(٩٨) جواد علي، المفصل، ج٧/٣٧٦ .
(٩٩) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٧ .
(١٠٠) سعيد الأفغاني، أسواق العرب ص٢٧٩ .
(١٠١) ناصر الرشيد، سوق عكاظ ص٤٨ .
(١٠٢) جواد علي، المفصل، ج٧/٣٨١ .

متطلبات التجارة الخارجية

١- المعاهدات التجارية :

لم تكن بين قبائل العرب في الجزيرة العربية والمناطق المجاورة في الشام والعراق ومصر والحبشة، معاهدات مكتوبة واضحة قبل الإسلام وبعده يمكن أن تعدّ أساسًا للتبادل التجاري بينهم، وتشير بعض المصادر إلى وجود إذن خاص من قيصر الروم لتجار قريش، للعمل في الشام وبينها وبين الحبشة، تمكّن من الحصول عليه هاشم جد النبي ﷺ(١٠٣).

وبطبيعة الحال فإن وجود قبائل عربية في الشام والعراق، وامتدادها في بلاد العرب، والعلاقات القائمة بينها، جعل هناك نوعًا من التعارف والتعاون والتبادل التجاري المبنيّ على الأعراف القبلية والمصالح المشتركة، كما أن القبائل التي تمرّ بها القوافل التجارية تكون على علم بهوية تلك القوافل، ومن ثم فإنها تمنع الاعتداء عليها، وإلاّ تعرضت للسرقة والنهب، ولاشك أن اعتقاد العرب في الأشهر الحرم، كان له دور في تأمين التجارة وتنقلاتها في هذه الأشهر، مع عدم اعتراف قطّاع الطرق وبعض القبائل بحرمة هذه الأشهر(١٠٤).

وقد كان بين قريش وبين بعض القبائل معاهدات معينة عرفت بالإيلاف، وهي الواردة في سورة قريش. ولعل سبب أمن قوافل قريش خصوصًا قدوم كثير من العرب إلى مكة في موسم الحج، وإكرام قريش لهم وحمايتهم، ولهذا كانت تلك القبائل تردّ بالمثيل، كما لا يستبعد وجودُ شركاء من هذه القبائل في تجارة قريش، وكانت قريشُ تمنع الاعتداء على أي من أفراد القبائل التي تمر بها تجارتُها، ولذلك فقد ثبت أنه عندما اعتدت قريش على أبي ذر الغفاري رضي الله عنه

(١٠٣) اليعقوبي، تاريخه، ج١/٢٤٢ .

(١٠٤) جواد علي، المفصل، ج٧/٣٧١ .

بالضرب قبل الهجرة، حذّرهم العباس بن عبد المطلب عمُّ النبي ﷺ، وقال لهم: «ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأنه من طريق تجارتكم إلى الشام...»[١٠٥]. فكفّوا عنه مراعاة لما يمكن عدُّه معاهدة عرفية خاصة بتجارة قريش إلى بلاد الشام.

ويورد الطبري قصة وقعت بعد بيعة العقبة الثانية، تُبيّن أهمية العهود والإجارة للتجار الذين يمرّون ببعض بلاد العرب، فيقول: «طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بالحاجر، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجبذونه بجمته، وكان ذا شعر كثير، فقال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليَّ نفر من قريش فيهم رجل أبيض، وضيء شعشاع حلو من الرجال، قال: قلت: إن يكن عند أحد من القوم خير فعند هذا، فلما دنا مني رفع يديه، فلطمني لطمة شديدة. قال: قلت في نفسي: والله ما عندهم بعد هذا خير، قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني، إذ أوى إليَّ رجلٌ منهم ممن معهم فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى والله لقد كنت أُجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يُضرب بالأبطح، وإنه ليهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق

(١٠٥) ابن عبد البر: أبو عمر يوسف عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣ هـ)، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، حاشية على الإصابة، القاهرة ١٣٢٨هـ ج٤/٦٣ . ابن حجر، الإصابة، ٤/٦٣ . الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج٢/٤٢٣ .

والله إن كان ليجير تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده. قال: فجاءا فخلّصا سعدًا من أيديهم وانطلق»[١٠٦].

وقد كان لحلف الفضول في مكة، الذي أشاد به رسول الله ﷺ[١٠٧] أثر كبير في تأمين التجار في مكة، وكان سببه نصرة لبعض تجار العرب الذين ظلموا من أشراف مكة، وإن كان السبب تجار من العرب قدموا من اليمن، فحصل لهم ظلم من بعض زعماء مكة[١٠٨]، إلا أن النتيجة لهذا الحلف كانت حماية لمن يقدم بتجارة من خارج مكة، سواء من بلاد العرب أو من خارجها.

وقد سار هذا الأمر بشكل طبيعي في بداية الإسلام، فثبت مشاركة بعض الصحابة في القوافل التجارية المتوجهة إلى الشام وغيرها.

ورغم الأحلاف المختلفة التي تؤمّن التجارة، إلا أن القوافل التجارية كانت غالبًا مصحوبة بحراسة عسكرية قوية، عمادها الرجال والسلاح من أصحاب التجارة، أو من يستأجرونهم أو يجيرونهم، ولذلك نجد جميع القوافل القرشية التي تعرّض لها المسلمون إبان نزاعهم مع قريش، كانت مصحوبة بحماية عسكرية قوية، وبعد استقرار الدولة الإسلامية في عصر الراشدين عمّ الأمن في بلاد العرب وساد العدل، وأصبح قطّاعُ الطرق والمعتدون على أموال الناس يتعرّضون لأشد العقوبات، مما كان له تأثير قوي في نموّ التجارة وأمنها، ومن ثم لم تعد هناك حاجة لوجود حاميات عسكرية تصحب التجّار وقوافلهم المختلفة .

---

(١٠٦) الطبري، تاريخه، ج١/ ٥٦٤-٥٦٥ .
وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٦٥/٣ .
(١٠٧) ابن هشام ، السيرة النبوية، ج١/ ١٣٤ .
الحلبي: علي بن برهان الدين، (ت ٩٧٥ هـ) السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، أنساب العيون، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٠هـ، ج٢١٢/١ . ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢٥٧/١ . الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٢٠٨/٢ .
(١٠٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج ٥ ص١٩٠ .

ورغم الحرص على تأمين التجارة بين بلاد العرب وخارجها، إلا أن التجار من الجهتين كانوا يتعرّضون للعقوبة، إن ظهر منهم ما يوجب ذلك، وقد كان ملوك العرب في الشام قُبيل الإسلام، يعاقبون تجار قريش عند ما يريدون ذلك. ومن هذا ما ورد: «من أنّ سعيد بن العاص قد قدم الشام في تجارة، فحبسه عمرو بن جفنة لأجل عثمان بن الحارث، فقال سعيد في ذلك:

يا راكبي إمّا عرضـ ـت فبلِّغنْ قومي يزيدا
عثمان أو عفان أو أبلغ مُغلغلةً أسيدا
فلأمدحنَّ المادحيـ ـن بمدحة تأتي شرودا

وكان قد حُبس مع هشام بن سعيد بن عبد الله بن أبي قيس العامري، فقال في ذلك:

قومي وقومُك يا هشامُ أجمعوا تركي وتركك آخر الأعصار

فاجتمع رأي بني عبد شمس على أن يفتدوا سعيد بن العاص، فجمعوا مالاً كثيرا فافتدوه به، ومات هشام في الحبس»[١٠٩].

ولاشك أن نشاط المسلمين التجاري خارج بلاد العرب في زمن النبي ﷺ كان محدودًا، ويجري بشكل فردي وشخصي، لأسباب عسكرية وسياسية، ومن ثم فإن هذه الأحلاف والأعراف كانت تسري عليهم مثل غيرهم من التجار الآخرين.

وأما في عصر الخلفاء الراشدين، فقد ظهرت بعض الأنظمة الخاصة التي لاشك أنها أثّرت بطريقة مباشرة في التجارة، إذ نُظّمت الأسواق، وعُرف نظامُ العشور في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١٠٩) ابن حجر، الإصابة، ج ٣/ ٢٨٩ .

وقد سبق ظهور هذا النظام في الدولة الإسلامية معرفة تامة بالنظم السابقة بين الأمم، إذ ذكر القاسم بن سلام «أنه كان له أصل في الجاهلية يفعله ملوك العرب والعجم جميعًا[١١٠]، فكانت سنّتهم أن يأخذوا من التجار عشر أموالهم إذا مروا عليهم»[١١١].

وقد كان التجار في معظم الأسواق العربية المشهورة، يتعرّضون للضرائب والمكوس، وخصوصًا الأسواق التي تستقطب التجارة من خارج بلاد العرب، وقد عُرف ممن كان يأخذ الضرائب من الناس، ممن عاصر النبي ﷺ الجلندي في سوق صحار ودبا في عُمان[١١٢]، والمنذر بن ساوى العبدي في سوق هجر بالبحرين[١١٣] قبل إسلامهم، كما كان الأبناء وهم حكام اليمن من الفرس يُعشّرون الناس في سوق عدن في مطلع الإسلام[١١٤]. وكان أكيدر دومة الجندل يعشر الناس في سوق دومة[١١٥].

وقد كان التعشير للتجار يعني بطريقة أو بأخرى تأمين الناس في هذه الأسواق[١١٦].

وقد أحس رسول الله ﷺ بما يتعرّض له التجار من مكس وضرائب، فكرهه وحذّر منه في أحاديث مختلفة، كما كتب في ذلك كتبًا مختلفة للقبائل والأقاليم يحذّرهم فيها من تعشير الناس، بدون حق وأخذ نسب من أموالهم بالباطل، وكان في بعض كتبه ﷺ يشترط عليهم «أنهم لا يحشرون ولا يعشرون»[١١٧]. ولعل ممن وجهت لهم

(١١٠) ابن سلام، الأموال، ص٦٣٨-٦٣٩ .
(١١١) الأموال، ص٦٣٦ .
(١١٢) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٦٥ .
(١١٣) القلقشندي: أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة (د. ت) ، ٤١١/١ . جواد علي، المفصل، ج٣٧٤/٧ .
(١١٤) اليعقوبي، تاريخه، ج٢٣٦/١ .
(١١٥) اليعقوبي، تاريخه، ج١/ ٢٢٦ . جواد علي، المفصل، ج٣٧١/٧ .
(١١٦) جواد علي، المفصل، ج٣٦٩/٧ .
(١١٧) القاسم بن سلام، الأموال، ص٦٣٦ .

رسائل الرسول ﷺ ملوك البحرين وعُمان وأمراء اليمن، وهم ممن أسلم وقبل وجود ممثلين وعمال للرسول ﷺ في مناطقهم.

ولا شك أن التجار القادمين لهذه البلدان التي كتب لها رسول الله ﷺ، كان فيهم من قدم من خارج الجزيرة العربية، فأبطل ذلك رسول الله ﷺ وأمّن التجار، واستبدل بذلك الزكاة الشرعية على المسلمين، والجزية على غيرهم.

وقد نهى الرسول ﷺ عن تلقي الركبان[١١٨]، ويسري ذلك على القادمين بسلع إلى الأسواق، سواء من داخل بلاد العرب أو خارجها، لما قد يقع فيه أولئك التجار من غرر، أو لما يقع من احتكار، وكان الغرض من هذا الإجراء أن تأخذ سلع التجار القادمين حقها من التقييم والثمن بحيث لا يظلمون، وفي الوقت نفسه لا يجري ضرر على المستهلكين في هذه الأسواق، ولا شك أن هذا التنظيم يسري على جميع التجار سواء مَنْ قدم من خارج بلاد العرب أو غيرهم.

وفي عهد عمر رضي الله عنه كان التجار من البلاد المحاربة للمسلمين في فارس والروم، يصلون إلى بلاد المسلمين وهم أهل حرب لا أهل عهد، فقرر المسلمون السماح لهم بالتجارة، مع معاملتهم بمثل ما يعاملون به المسلمين القادمين للتجارة في بلدانهم، وذلك بأن يؤخذ منهم العشر من أموالهم مرة واحدة على المال، مثيل ما كانوا يأخذون من تجار المسلمين، وقد ناقش العلماء في عهد الراشدين وما بعده، ورأوا أن الأمر غير مخالف للنصوص الصريحة الواردة من رسول الله ﷺ، وأن هذا معاملة بالمثل؛ فقد ورد «عن عبد الرحمن بن معقل قال: سألت زياد بن حدير، من كنتم تعشرون؟ قال: ما كنا نعشر مسلمًا ولا معاهدًا. قلت: فمن كنتم تعشرون؟ قال: تجار الحرب، كما كانوا يعشروننا إذا أتيناهم»[١١٩]. ويبدو أن المسلمين في عصر عمر رضي الله عنه

(١١٨) انظر: صحيح البخاري، باب النهي عن تلقي الركبان، ج٢/٢٨ .
جواد علي، المفصل، ج٧/٤٠٠ .
(١١٩) القاسم بن سلام، الأموال، ص٦٣٥ .

كانوا يشترطون نصابًا معينًا من المال والبضائع لمن يؤخذ منه العشر؛ فقد كان أصحاب الأموال القليلة لا يدخلون في هذا النوع من الضرائب، وإنما هي على التجار أصحاب رؤوس الأموال ذات القدر المعين(١٢٠)، وقد كان دافعو العشر يحصلون على صكوك معينة(١٢١) بذلك، حتى لا تتكرر الجباية عليهم(١٢٢).

حرصت بعضُ نصوص المعاهدات في عصر الراشدين على التأكيد على حرية التجارة

وقد حرصت بعضُ نصوص المعاهدات في عصر الراشدين على التأكيد على حرية التجارة، وضمن ذلك جزء من معاهدة عمرو بن العاص مع بعض المصريين، حيث جاء فيها: «وعلى النوبة الذين استجابوا، أن يعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، على ألا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة»(١٢٣).

وكان ضمن مفاوضات المسلمين مع الفرس قبيل القادسية، ما جرى على يد رستم؛ حيث حاول إغراء المسلمين بفتح بلاده للتجارة أمام المسلمين حيث: «بعث رستم إلى سعد، أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا، فقال له المغيرة : إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة»(١٢٤).

---

(١٢٠) انظر: ابن سلام، الأموال، ص٦٤٣ .

(١٢١) الطبري، تاريخه، ج ٢ /٥١٥ .

(١٢٢) القاسم بن سلام، الأموال، ص٦٤٧ .

(١٢٣) الطبري، تاريخ، ج٢/ ٥١٥ . ابن كثير، البداية والنهاية ج ٧ / ٩٨ . ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، (د.ت)، ج ١ / ٢٥ .

(١٢٤) البداية والنهاية، ج ٧ / ٣٩ .

٢- حجم التجارة:

من الصعب على الباحث تقدير حجم التجارة بين بلاد العرب والمناطق الأخرى عمومًا، ويمكن من خلال بعض الشواهد إعطاء بعض التصوّر عن حجم التجارة الخارجية لمناطق بعينها، وعلى سبيل المثال، توجد لدينا شواهد مختلفة عن حجم القوافل بين مكة والشام، وعن عددها وتقديرها في بعض السنوات، وخصوصًا في مرحلة جهاد رسول الله ﷺ لقريش، ومحاولاته المتكررة لحربها اقتصاديًا، وقطع طرق التجارة عليها، مما يعطينا معلومات مهمة عن حجم تلك التجارة.

ففي غزوة بدر ذكر أن القافلة التي حاول رسول الله ﷺ التعرض لها، كان فيها عير عظيمة لقريش، وقد قدرت بألف راحلة(١٢٥)، والمال الذي معها بخمسين ألف دينار(١٢٦).

وقد غنم المسلمون من سرية بعثها الرسول ﷺ بقيادة زيد بن حارثة، قرابة مئة ألف درهم من الفضة(١٢٧).

وحينما اختار أبو بصير موقع العيص(١٢٨)، وكمن فيه فترة من الوقت مع بعض المسلمين معه، أنزل ضربة قوية ومؤثرة في قوافل قريش، مما أغاضها ودفع قريشًا للكتابة لرسول الله ﷺ تسترحمه وتطلب منه سحبهم من موقعهم في وقت هم في عداء مع الرسول ﷺ(١٢٩)، مما يعطينا انطباعًا مهمًا عن حجم تجارة قريش المتضررة من هذه الكمائن.

(١٢٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦٠٦ .
(١٢٦) النويري، نهاية الأرب، ج١٧/ ٨١ .
(١٢٧) الطبري، ج٢/٤٩٢ .
(١٢٨) مكان كثيف الأشجار على طريق مكة البحري إلى الشام، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ١٧٣ .
(١٢٩) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٢٤ . الطبري، تاريخه، ج٣/٨١ . المقريزي : أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ)، إمتاع الأسماع بما للرسول من الأولاد والحفدة والمتاع، القاهرة ص٣٠٥ .

وفي عصر الراشدين نما حجم التجارة داخليًا وخارجيًا، وقد كان عبد الرحمن بن عوف في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أكثر الصحابة مالاً وتجارة[١٣٠]، والمطلع على ثروته يدرك مقدار النمو المالي والتجاري الذي حصل عنده وعند غيره من أثرياء المسلمين، ولا شك أن لذلك تأثيرًا في حجم التبادل التجاري بين المدينة والمناطق الأخرى، ومنها ما هو خارج بلاد العرب، حيث كانت تصل تجارة عبدالرحمن بن عوف إلى العراق ومصر والشام، في وقت كان يقيم فيه بالمدينة المنورة، ولكثرة تجارته وأمواله فقد تصدق مرة بأربعين ألف دينار[١٣١].

٣- السلع المتبادلة:

لقد كانت العرب قبل الإسلام تتبادل سلعًا مختلفة، ليس فيها ما يحظر من التجارة دينًا ولا عادة، فلما جاء الإسلام ومد سلطانه في أواخر عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، أصبحت هناك سلع مباحة وسلع محرمة؛ فقد حرم الاتجار بالخمر والأصنام مثلاً ، وتمّ توقّف استيرادها من خارج بلاد العرب وتصنيعها داخلها[١٣٢]، حتى إن من كان بحوزته أصنام من فضة أو معادن، كان يكسرها ويستعملها كمعدن مباشرة غير ممثل[١٣٣].

٤- الصادرات :

وقد كانت بلاد العرب الجنوبية على علاقة تجارية بالهند وبعض الجزر البحرية في المحيط الهندي، التي تنتج بعض السلع المهمة في التجارة العالمية آنذاك كالبهارات واللبان، كما تعدّ معبرًا من معابر

(١٣٠) البخاري، صحيحه، ج٣/٣ . ابن حجر، الإصابة، ج٢/٤١٦ . ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج٢/٣٨٥ . الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٣/٥٣٠ .

(١٣١) ابن حجر، الإصابة، ج٦/٢٤١ .

(١٣٢) جواد علي، المفصل، ج٧/٥٤٠ .

(١٣٣) القاسم بن سلام، الأموال ص ١٣٦ .

الهند، وبالتالي فإنه يعاد تصدير تلك السلع من اليمن عن طريق البحر الأحمر إلى السواحل الشمالية منه والأقرب لبلاد الشام، وبالتالي فإنه من غير المستبعد أن عددًا من التجار العرب في اليمن وغيرها، كان يؤدي دور الوسيط في الاستيراد وإعادة التصدير مرة أخرى لكثير من السلع القادمة من الشرق، والمتوجهة إلى الشام أو مصر، ومن ثم إلى أسواق أخرى، بل إن بعض المصادر تتحدّث عن المنافسة الفارسية الحبشية قبيل الإسلام، وتضع من أسبابها الحرص على السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر لأهميته التجارية في تنقل البضائع بحرًا بين الشرق والشمال(١٣٤).

وتأتي الجلود وما يرتبط بها من منتجات الأديم وغيرها، من أهم ما يُصدّر من بلاد العرب إلى البلدان المجاورة، وقد اشتهرت الطائف بتصدير الجلود الممتازة(١٣٥)، إلا أن هذا النوع من السلع يجد قيمة خاصة في بعض الأسواق، وخصوصًا في الحبشة، وتقل قيمته بل ولا يستحق التصدير إلى بعض الأماكن الأخرى كالشام والعراق وفارس(١٣٦)، ربما لوجود صناعات جلدية أفضل لدى أهل تلك البلاد.

كما يعد الصمغ والمر والطيب بأنواعه المختلفة، ومنه الذرور المركب محليًا في مكة واليمن، مما يتم تصديره من بلاد العرب إلى الخارج.

وتعدّ بعض المعادن الثمينة ممّا يصدر من الحجاز إلى الشام، حيث وجدت بعضُ مناجمه في أرض بني سليم وغيرها(١٣٧).

(١٣٤) ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ص٢٢ .

(١٣٥) جواد علي، المفصل، ج٧/٣١٥ .

(١٣٦) الطبري، تاريخه ج٣/١٠٣ . الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٢/٨٧ . د. عبد العزيز إبراهيم العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، ط ٣، الرياض ١٤٢٠هـ ، ص٤٤ .

(١٣٧) جواد علي، المفصل، ج٧/٣٧٦ .

كـمـا أن ممّا يسـتـورد لبـلاد العـرب من الخـارج الرقـيق[١٣٨] الذي يأتي من مـخـتلف المناطق، حـيث كـانت له سـوق رائجـة فـي جـمـيع الأسواق العربية وغيرها.

٥- الواردات :

كانت الواردات تصل إلى المدينة، وهي قاعدة الدولة الإسلامية في عـصـر الراشـدين، وقد ثبت بنصـوص مـختلفة أن النبط[١٣٩] كـانوا يتاجـرون في المدينة زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقـدمون بالسلع من مصر والشام وبلاد الفرات[١٤٠].

لاشك أن السلع المستوردة من خـارج الجـزيرة العـربيـة، تعدّ سلعًا مميـزة تسـتحق عناء النقل والمخـاطر المصـاحبـة لها، ويأتي على رأس تلك السلع الأسـلحـة المختلفة كالسـيوف والدروع، التي كانت تسـتورد من الشام والعراق والهند والحبشة وغيرها.

وتُعـدّ الأطعـمــة من أهـم الواردات إلى بـلاد العـرب، ويأتي على رأس ذلك الزيت الذي كان يستورد في الغـالب من بلاد الشـام، حيث يجلبه النبط إلى سوق المدينة وغيرها، كما أنهم يجلبون أنواعًا فاخرة من الدقـيق[١٤١]. ويعـدّ الزيت مما يجلب لبــلاد العــرب من الشــام وغيرها[١٤٢].

كـمـا كـانت الأقـمـشـة المخـتلفـة من أهم مـا يسـتـورد إلى بلاد العـرب[١٤٣]، ويسـمـون العـمل فـيهـا تجـارة البـز[١٤٤]، وكان عـدد من

(١٣٨) جواد علي، المفصل، ج٧/٣٧٦ .

(١٣٩) النبط قوم من العرب سكنوا جنوب فلسطين ومنطقة الأردن اشتهروا بالتجارة والزراعة في تلك المناطق لهم لغة خاصة وكتابة خاصة.

(١٤٠) القاسم بن سلام، الأموال، ص٦٤١ .

(١٤١) انظر: جواد علي، المفصل، ج٧/ ٣١٣ .

(١٤٢) انظر: القاسم بن سلام، الأموال، ص ٦٠٦ .

(١٤٣) الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبدالرحمن، سنن الدارمي، دار إحياء السنة، د. ت، ج٢/٢٦٠ .

(١٤٤) القاسم بن سلام، الأموال، ص٥٢١ .

أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البز في زمن النبي ﷺ وفي زمن الراشدين، ومنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه (باب التجارة في البزّ وغيره)[١٤٥]، كما أن عمر رضي الله عنه كان من تجار البز، وله شريك آخر من أهل العراق له خبرة في التجارة في مصر، ولعله كان يجمع تجارته من مصر والعراق والحجاز. وقد قال عنه ابن حجر: «كان أحد وفد أهل الحيرة إلى رسول الله ولم يسلم، وأسلم زمن أبي بكر، وكان شريك عمر في الجاهلية في تجارة البز، وقدم الإسكندرية سنة خمس عشرة رسولاً من عمر إلى المقوقس»[١٤٦].

كما كانت تُستورد تبعًا لذلك الإبر والخيوط والحبال، وغيرها مما يرتبط بأعمال الخياطة[١٤٧]، ولا يمنع هذا الاستيراد من وجود بعض الإنتاج المحلي منها.

كما كانت المجوهرات والأعمال المصاغةُ المختلفة، مما يجلبه التجار لبلاد العرب من الأماكن المختلفة[١٤٨].

كما تعد الأواني المنزلية، من السلع المهمة المستوردة من الخارج لبلاد العرب[١٤٩].

وقد كان العنبر البحري وبعض الجواهر مما ينتج من البحر في زمن النبي ﷺ[١٥٠]، ولعل بعضًا منها كان يُصدّر إلى خارج بلاد العرب.

(١٤٥) البخاري، صحيحه، (فتح الباري)، ج١٤٣/٩ .
(١٤٦) ابن حجر، الإصابة، ج ٦٠٣/٥ .
(١٤٧) انظر: القاسم بن سلام، الأموال، ص٥٢٥ .
(١٤٨) انظر: القاسم بن سلام، الأموال ص٥٢٣ .
(١٤٩) جواد علي، المفصل، ج٤٨٩/٧ .
(١٥٠) انظر: الأموال، ص٤٣٥ .

٦- النقود المستعملة للتجارة الخارجية :

لاشك أن عملية ضرب النقود تحتاج إلى دول قوية ومنظمة، وكانت بلاد العرب قبيل الإسلام تفتقر إلى وجود دولة ونظام يتبنى هذا الأمر، وبالتالي فقد كان العرب عند البعثة يتعاملون بالنقود المستعملة في الدول المجاورة، وخصوصًا في البيع والشراء مع التجار من خارج الجزيرة العربية، وقد استمر الأمر على ما هو عليه طيلة العصر النبوي، ومطلع عصر الراشدين، وقد كان الدينار البيزنطي على رأس العملات المتداولة في تلك الفترة، وهو مضروب من الذهب، وعليه صورة الإمبراطور البيزنطي الذي ضرب في عهده(١٥١).

وقد ذكرت بعض الروايات أن هرقل أهدى بعضًا من هذه الدنانير لرسول الله ﷺ أثناء غزوة تبوك(١٥٢).

وقد أقرّ الرسول ﷺ استعمال هذه الدنانير في الجزية وغيرها(١٥٣).

كما كان الدرهمُ وهو من الفضة يُستعمل عند العرب قبل الإسلام وبعده، واستمر استعماله في عصر الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين، وكان الدرهم الفارسي المضروب في الدولة الساسانية هو السائد للتعامل في الفضة، وهو قطعة من الفضة على أحد وجهيها نقش يمثل الملك الساساني المضروبة في عهده(١٥٤)، وقد كانت تسمى

(١٥١) لمزيد من التفصيل انظر: سمير شما، النقود المتداولة في عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين، بحث مقدم إلى الندوة العالمية الثالثة لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، ١٤٠٢هـ .

(١٥٢) القاسم بن سلام، الأموال، ص٣٣٥ .

(١٥٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٢ . ابن سلام، الأموال، ص٣٥ .
أبو يعلى: محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨هـ)، الأحكام السلطانية، محمد حامد الفقي، ط ٣ ، دار الفكر، بيروت ١٣٩٤ هـ، ص٦٢٩ .

(١٥٤) أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ١٧٥. سمير شما، النقود المتداولة في عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين، بحث مقدم إلى الندوة العالمية الثالثة لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، ١٤٠٢هـ .

بعد ذلك عند المسلمين، (الطّبرية) العتق، أي دراهم طبرستان العتيقة[١٥٥]، وكانت الدنانير والدراهم تتعرّض للنقص واقتطاع أجزاء منها، ولذلك فقد ساد بين الناس التعامل بها وزنًا لا عدًا، نظرًا لاختلاف أوزانها[١٥٦].

ومن خلال العديد من النصوص تبين وجود أناس متخصصين في الصرافة، وتبديل النقود في العصر النبوي وعصر الخلافة الراشدة، اتخذوها مهنة جارية لهم[١٥٧]، ولعل هذا الأمر يدل على أهمية العلاقات التجارية الداخلية والخارجية، وحاجة الناس إلى العملات المناسبة للتعامل مع المناطق المختلفة.

ولاشك أن بعض المداولات التجارية كانت تجري بالمقايضة، أي استبدال سلع بسلع أخرى دون الحاجة إلى استعمال النقود، وهذه الطريقة مستعملة في جميع العصور التاريخية دون استثناء، حتى في العصر الحاضر.

الخاتمة:

من خلال البحث اتضح أن بلاد العرب على وجه الخصوص، قامت لها علاقات تجارية قوية، مع المناطق المجاورة في العصر النبوي وعهد الراشدين، وخصوصًا المناطق الأقرب إلى طرق التجارة العالمية، والمناطق ذات النشاط السكاني القوي في مجال التجارة، مثل اليمن وسواحل الخليج بالإضافة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وقد اكتسبت المدينة المنورة مكانة عظيمة في تلك التجارة تدريجيًا بعد الهجرة النبوية، وتأصلت تلك المكانة وزادت في فترة الفتوح

(١٥٥) القاسم بن سلام، الأموال، ص٦٢٩ .

(١٥٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٢ .

(١٥٧) عبد العزيز بن إبراهيم العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ ، ص١٥٦ .

والاستقرار الإسلامي في عصر الراشدين، في الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية، وقد كان للتشريعات الإسلامية دورها الإيجابي في الأمن العام، في مختلف الأقاليم التي حكمها الإسلام، وبالتالي في نمو التجارة وازدهارها وتبادلها بين المناطق المختلفة، ومنها بلاد العرب مع غيرها من الأماكن، وإن تفاوتت تلك العلاقات التجارية قوة وضعفًا مع تلك المناطق، حسب انتشار الإسلام فيها، وقوة علاقتها سكانيًا واجتماعيًا مع بلاد العرب.